واحداً لا تختلف عنهُ الّا في بعض امور طفيفة تحوجها اليها احوال الزمان او المكان ذلك سيرها منذ اوّل الخليقة الى يومنا وعليهِ فانّنا نُنكر كلّ الانكار ان في اعمال الحيوان ما يدلُّ على التّرقي والكمال لاسيما الكمال الارقيّ الذي لو صحّ وجودهُ في الحيوان لأضحى أعلى رتبةً من الانسان والانسان كما لا يخفى لا يرث من ابيهِ الّا ما يتعلّق ببنية جسمهِ وتركيب اخلاطهِ

٣ امّا القوى الادبية التي اراد صاحب المقالة ان يثبتها للحيوان فانّها محض اختلاق وسفسطة ليس الّا فانّ الاعمال التي ذكرها ويشاهدها الجميع في الحيوان لا تدخل البتّة في باب الآداب وانّما هي احساسات وشعائر لا تتجاوز نواميس البهائم

أمّا معرفة الحيوان بالخير والشرّ والعمل بالواجب على مقتضى حكم الذمّة والقيام بما تفرضهُ الشريعة وما شاكل ذلك فانّ بعدهُ من البهميّة كبعد الثريّا عن الثرى لا يقول بهِ الّا من فقد البصيرة وتعنّت في سبيل الضلال وقانا الله شرّهم

هذه عجالةٌ اسرعنا الى كتابتها والعجلة مائتة للطبع وان شاء الله سنعود الى هذا البحث الجليل عند سنوح الفرصة . وفي ما قلنا كفاية لتفنيد مزاعم خليل بك سعد وترييف النتيجة التي ختم بها مقالتهُ « ان المبدأ العقلي عامٌّ في جميع انواع الحيوان وانّ العجاوات منهُ تشترك في كلّ ما يفتخر بهِ الانسان من الحواس والبدانهِ والقوى المختلفة » (الضياء ص ٦٧٩) والعياذ بالله من هذا القول

كتاب
تاريخ بيروت

لصالح بن يحيى (تابع لما سبق)

الطبقة الثالثة (٩١ظ) (١)

قد ذكرنا اصول البيت في الطبقة الاولى ثمّ ذكرنا فروعهُ في الطبقة الثانية وذكرنا من عاصرهم وجعلنا عمدة الطبقة الثانية ناصر الدين الحسين . اذ هو كبير البيت والمشار اليهِ في زمانهِ ونذكر الآن ولد ناصر الدين الحسين وفروع بيتهِ وهي الطبقة الثالثة ثمّ نذكر معاصريهم وهم اولاد المذكورين في الطبقة الثانية لينتظم سلك ذكر السّلف على

١) ظهر الصفحة (٩٥ظ) بياض في الاصل

المطابقـة والمعاصرة ومناسبة الترتيب وما توفيقي الا بالله

الامير زين الدين صالح ابن الامير ناصر الدين

كان والدهُ ناصر الدين لمَّا جاوز الثمانين قد ضعفت حركتهُ وقصرت همَّتهُ فنصب ولدهُ زين الدين مكانهُ وتزل لهُ عن اقطاعهِ طلبًا للراحة فتولى الامارة في عهد ابيهِ وكان عمرهُ نحو خمس واربعين سنة . فاحسن في قومهِ السياسة وسادهم بحميَّـة الرئاسة فحسنت سيرتهُ وانقاد اليهِ اهلهُ وعشيرتهُ فحذا حذو والدهِ ونسج على منوالهِ

وقد رأيت خطَّ ناصر الدين بالتزول عن اقطاعهِ لولدهِ زين الدين المذكور من مضمونهِ انَّهُ يتزل عن اقطاعهِ لولدهِ بحكم ان يقضي ديونهُ ويقوم بكلفتهِ وكلفة عائلتهِ باقي عمرهِ . تاريخهُ شهر رمضان سنة تسع واربعين وسبعمائة (١٣٤٨ م)

ثم عاش ناصر الدين بعد تزولهِ لابنهِ عن اقطاعهِ سنتين وخمسة وعشرين يومًا وعاش زين الدين ولدهُ بعدهُ نحوًا من (٩١٢) ثماني وعشرين سنة وجاوز عمرهُ سبعين سنة فعل بافعل والدهِ وتزل عن اقطاعهُ لولديهِ وهما شهاب الدين احمد واخوهُ سيف الدين يحيى وجعلهُ فيهما بالسويَّة بمنشور واحد واشترط انَّ من تُوفي منهما قبل اخيهِ يورث نصيبهُ لاخيهِ من غير تجديد منشور ثانٍ . وتاريخ هـذا المنشور بحكم التزول السادس عشر من جمادى الآخرة سنة اربع وسبعين وسبعمائة (١٣٧٣ م)

واخبرتني امُّ نجم الدين زوجة زين الدين المذكور قالت : « قبل تزولهِ عن الاقطاع نوى ان لا يقسمهُ بين اثنين من اولادهِ . ثم ثنى عزمهُ عن ذلك وتزل عنهُ لولديهِ مناصفة كما ذكرنا » . ارادت بقولها ان الاقطاع يكون بكمالهِ لصهرها يحيى فسلك زين الدين الواجب وجعلهُ بين الاخوين مناصفةً ولم يلتفت الى ما سوى ذلك . ومع انَّ احمد كان الاكبر فقد ميَّز الاصول الطيبة وكره الاصول الرديَّة سالكًا بذلك طريقـة ابيهِ ناصر الدين . وكان زين الدين شديد الغضب حسن الرضى حازمًا في قمع ذوي المفاسد ساعيًا في سدّ الخلل والاصلاح فحسنت سيرتهُ وساد قومهُ

ذكر حوادث جرت في ايامهِ

من ذلك حادثةٌ جرت في حياة والدهِ ناصر الدين (١ في ليلة الخميس في الثالث

---

١) راجع اخبار الاعيان ص ٢٣٦

والعشرين من ربيع سنة خمسين وسبعمائة (١٣٤٩ م) وذلك ان الجغا المظفري نائب طرابلس وصل الى دمشق ليلًا برسوم مزور عن السلطان وقبض على نائب الشام ارغون شاه وقتلهُ وامراء الشام (92) يظنُّون انَّ ذلك برسوم السلطان. ثم رجع نائب دمشق الى طرابلس وعصى بها

ثم بلغ الشاميين قصدُ توجُّه نائب طرابلس الى الساحل وكانت دمشق بغير نائب. فارسل الشاميون الى زين الدين برسومًا رأيتُ عليهِ اربع علامات وهي علامات المماليك مسعود بن الخطيري والمماليك طيدمر الحاجب والمماليك الجغا والمماليك ملك آص(١ من مضمونهِ انَّ المرسوم الشريف وردنا بامساك الجغا نائب طرابلس وامساك مماليكهِ تمربغا وجماعة مماليكهِ ومن كان معهم في تلك الحركة من الجراكسة. وان يتقدَّم بحفظ دربند نهر الكلب ولا يمكن المذكور من العبور فيهِ

فتوجَّه زين الدين وضبط دربند نهر الكلب ومنع نائب طرابلس من العبور ثم حضرت عساكر الشام فقبضت عليهِ ووُسط تحت قلعة دمشق ومعهُ اياس الحاجب

وفي ايَّامهِ في سنة خمس وسبعين وسبعمائة (١٣٧٤ م) أُقطعت قطورة (كذا) البلاد لسيف الدين كبطق (؟) الرمَّاح معلم الجامكية السلطانيَّة الاشرفيَّة وأفتى بذلك الائمَّة وكانت تلك القضيَّة صعبة فسعى فيها زين الدين وابطلها بعد تعب وغرامة غرمها من مالهِ لم يكلِّف فيها احدًا ولا درهمًا فردًا. ثمَّ اقطعوها في ايَّام الملك الناصر فرج بن برقوق. ثمَّ أبطلت كما سنذكرهُ ان شاء الله فيما بعد

ومن الحوادث خروج صاحب قبرس واخذهُ الاسكندريَّة واحتراز الناس منهُ على الساحل فحصل بذلك تعب لاصحاب الدرك بالسواحل واكثرهم تعبًا امراء الغرب لانهم أُلزموهم بالسكنى في بيروت والركب ليلًا ونهارًا (92) فوجدوا بذلك مشقَّة كبيرة. وقصد يلبغا الكبير المتكلِّم عن السلطان في ذلك الزمان ان يحارب قبرس ويأخذها وشرع في عمارة شواني وحمَّالات وارسل بيدمر الخوارزمي الى بيروت في سنة سبع وستين وسبعمائة (١٣٦٦ م) ليعتبر بها عدَّةً كثيرة من الحمَّالات والشواني وجعلوا اقامة العساكر الشاميَّة في بيروت بالبدل وقد تقدَّم ذكر ذلك في اخبار بيروت(٢

---

١) وفي اخبار الاعيان (ص ٢٣٦) ان اسماءهم: ابن الخطيري وبيدمر ويلبغا وملك آص

٢) راجع المشرق (١: ٢٨٦)

فازداد تعب امراء الغرب وكبرت كلفتهم على العساكر وكابدوا الامور بمشقة زائدة وعناء ونصب فاعانهم الله على ذلك. وكان كما بدأ هذا الامر قد تكلّم تركمان كروان عند بيدمر بكلام كثير وجعلوا لهُ الف رجل من الدرك ليدخلوا قبرس وقالوا لهُ انهم تعلّموا اعمال كثيرة تمكّنهم منها. فدخل كلامهم في ذهن بيدمر وساعدهم على قصدهم وتوجّه بعضهم الى مصر ورسم لهم بكتابة مثالات باقطاعات امراء الغرب

وكان قد توجّه الى مصر لهذا السبب الاميران سعد الدين خضر ابن عمّ زين الدين المذكور وسيف الدين يحيى ابن زين الدين فاجتمعا بالقاضي علاء الدين فضل الله كاتب السرّ بمصر وكان واصلاً عند الامير الكبير يلبغا فمثلا امامهُ وساعدهما وقال: « هؤلاء غرس المارك الاوائل ان كان فيهم نفع فقد استحقّوا به اقطاعهم وان لم يكن فيهم نفع فحاشا لله ان يبطل في ايام الامير الكبير معروفٌ اسداهُ لهم الملوك الاوائل ». وعند ذلك رسم بتنزيل مثالات التركمان وامر بان يستقرّ (٣٤٩) امراء الغرب على اقطاعاتهم

ولمّا قصد سعد الدين وسيف الدين العود الى بيروت عرّفهما علاء الدين بن فضل الله انّ قصدهُ عمارة خان الحصين (كذا) وان يكون زين الدين ملاحظاً في عمارته وطلب اليهما ان يجهّزا لهُ ما وجدا من الخطوط المنسوبة فعلا ذلك

وكان علاء الدين المذكور من كتّاب الخطّ المنسوب في الاقلام السبعة. وكان اوقف على خان الحصين المزرعة المعروفة بجون الدبّ فتغلّب عليها اولاد الحمراء وجعلوها لهم. فلمّا استقرّ بيدمر في بيروت لعمارة الشواني عجز تركمان كروان عمّا يُطلب منهم على خاصّة اقطاعهم (كذا) وعن القيام بخدمة بيدمر فهربوا الى الروم وشكر الناس لامراء الغرب. وارسل بيدمر كتاباً الى الامير الكبير يلبغا يشني عليهم. وقد تقدّم من ذكر عمارة بيدمر للمراكب ما يغني عن اعادته هنا

ووقفتُ على مرسوم من ملك الامراء متجك نائب الشام الى غرس الدين متولي بيروت من مضمونهِ ان يطلب جمال الدين حسّان ويأخذ سيفهُ ويرسم عليه ويقابلهُ اشدّ مقابلة على سوء ادبهِ نحو الجناب الزينيّ امير الغرب وكذلك لمحمّد بن قرياش ولخليل ابن سعدان وكتابهُ إشهاد عليهم وعلى جماعتهم بالركوب والنزول معهُ ولا يتوجّه احد منهم من بيروت الّا باذنهِ وان لا يفارقوا خدمة المذكور ليلاً ولا نهاراً ومتى فعلوا

غير ذلك كان عليهم خمسون الف درهم لاصطبلات خيول البريد. تاريخهُ سنة سبعين وسبعمائة (١٣٦٩ م) (١ (٩٣)

وكان لمنجك بزين الدين عناية تامّة ويقرّب مقعدهُ عندهُ وكان اذا حضر زين الدين الى دمشق يرتّب لهُ سماطاً وعليقاً واذا قصد الرجوع الى البلاد يخلع عليهِ منجك الخلع السلطانيّة من طرد وحش وحياصة وشاش بطرفين (٢ او ممّا لبس منجك وبعد لبس الخلع كان يعطيها تفاصيل حرير وغيرهُ برسم هديّة للحريم

وسمعتُ من كان يقول عن زين الدين انّهُ لمّا اختفى منجك استتر عندهُ وانّ ذلك كان بواسطة بهادر أستداره لانّ بهادُر المذكور ربي عندهم مدّةً ببيروت وكان ارمني الجنس ثمّ ارتقى من استداريّة منجك الى استداريّة السلطان بمصر. والحوادث في ايّام زين الدين كثيرة اختصرتُ منها على ما ذكرتهُ

وكان زين الدين مقصداً للوارد والصادر ومدحهُ الشعراء بقصائد كثيرة فمن ذلك ما ذكرهُ محمد بن عليّ بن محمد الغزّي في مقامتهِ المذكورة بعد فراغهِ من مدحهِ لناصر الدين والدهِ فقال: « واماً فرع اصلهِ الكريم. وواوث مجدهِ الصميم. نجمٌ اشرق في سماء معاليهِ. وغصن اورق في دوحة جدهِ وابيهِ. الجنساب الزيني زان الله باشراق طلعتهِ السعيدة افق المحافل والمجافل. وجعلهُ لقضاء حقوق المعالي خير كافٍ كافل. صالح كاسمهِ وفعلهِ. زينٌ كفرعهِ واصلهِ. قد جمع فضيلتي السيف والقلم. ومن اشبه اباهُ فما ظلم. والشبل في المخبر مثل الاسد (٩٤٢):

فرعٌ زكا من خير اصلٍ طاهرٍ ما زال يُثمرُ بالمنايا والمُنى
يُخشى ويُرجى سطوةً ومكارماً ويرى الثناء اعزّ شيءٍ يُقتنى

وقال محمّد الغزّي المذكور عند ما انهى ذكر اقارب ناصر الدين الحسين واخوتهِ وولدهِ: « فهؤلاء الذين ذكرتُ بعض وصفهم. وعطّرتُ مجلس أُنسكم بطيب عرفهم. هم امراء الثغر وساداتهُ. ورعاة سرحهِ وحماتهُ

من تلقَ منهم تقل لاقيتُ سيّدهم مثل النجوم التي يسري بها الساري

---

١) جاء في هامش الكتاب ما نصّهُ: « وكان عليّ بن ارسلان بن مسعود كثير الكلام والقلقلة وكان يوشي في حقّ زين الدين المذكور بالكذب ويرميهِ بالباطل فمكّنهُ واهانهُ فكتب عليهِ اشهاد بسوء سيرتهِ وتوبتهِ عنها سنة اربع وسبعين وسبعمائة (١٣٧٣ م) ٢) راجع المشرق ١ : ٢٢

أما سمعتَ من عبد ايادیهم . جامعا ذكر نداهم وناديهم

ان تخشَ بأسًا او ترجُ بذل ندًى مضاعف المنّ غير ممنونِ
فَلُذْ بارضٍ جنابها حرمٌ ما بين اعبيهِ وعرامونِ

ولعمر ابيكم انهم احقّ بقول حسّان:

بيضُ الوجوهِ كريمةٌ احسابهم شمُّ الانوف من الطراز الاوّلِ

وما نطقَ شاعر بلدي . الّا بما كان في خلدي . اغنى به الغزّي عن الغزّي الاوّل الشاعر المشهور والأولى بالمعنى من القائل عن نفسهِ فهو اقرب:

قومٌ اذا قُوبلوا كانوا ملائكةً حسنًا وان قُوتلوا كانوا عفاريتا

والأليق بمجدهم . قول عبدهم:

تقاصر فهميَ عن وصفهم فماذا يقالُ وماذا اقولُ (94)
جبالٌ تسيرُ شموسٌ تنيرُ اسودٌ تصول سيولٌ تسيلُ »

ولمحمّد الغزّي في زين الدين اشعار كثيرة وكذلك لغيرهِ اختصرتُ ذكرها . فمن شعر الغزي قولهُ من قصيدةٍ:

ان اذنبتْ بالصدود مُعرضةً قلب مشتاقها يسامحها
زاد سناها سنا الوجود كما قد زانها زينها وصالحها
مكارمٌ في تواضع وعُلىً يكلُّ عنها في الوصف مادحُها
ونفسُ حرٍّ ترتاح ان تعبت في كسب حسن الثنا جوارحها
وهمّةٌ همُّها بلا ملَلٍ مصالحُ الغير لا مصالحها
وراحةٌ راحةٌ للامّها يفوزُ بالمسّ من يصافحها
لهُ محيًا تُحيي بشاشتهُ فالشمس فيها منها ملامحها
هانت عليهِ بأسًا ومكرمةً دنياهُ حتى لم يُخشَ فادحُها

ولهُ من قصيدةٍ أخرى:

وحتك انَّ الغدر شينٌ وفاسدٌ وصالح زين الدين زينٌ وصالحُ
تقيٌّ نقيُّ الجيب للعيب ساترٌ ولكنّهُ للغيث بالجود فاصحُ (95)
فكلُّ الذي يحوي علاه محاسنٌ وكلُّ الذي يحوي عداهُ مقابحُ
فاقلامهُ بالسلم تبكي بكفهِ وتضحكُ يوم الحرب فيها الصفائحُ

من العُرب انسابًا لها العرب متزلٌ يجود بحسن المدح فيها القرائحُ
فان كنت فيها عن صفاتك قاصرًا ففضلك يُغضي محسنًا ويسامحُ
فدم في سرورٍ من ابٍ وعمومةٍ اليك الثنا يهدى بهِ كان صالحُ

وقد وجدتُ لمحمّد النزي المذكور اشعارًا كثيرةً ومدائح في السلف ولو ذكرناها لطال بها الكتاب (١ (ستأتي البقيّة)

السفر العجب الى بلاد الذهب

للاب امبل ريتو اليسوعي (تابع لما سبق)

الفصل السادس

في كشف القائل

وكانت جرائد سان فرنسيسكو الصادرة في صباح ذلك اليوم قد أعلنت في صفحاتها الاولى بحروف كبار ان الشرط وقفوا على آثار المستر جون نسيب فان المذكور بعد ان طاف كثيرًا من المدن الاميركيّة متّخذًا اسمًا كاذبًا فرَّ اخيرًا الى مناجم ألاسكا وعليهِ فقد ارسلوا عمّالًا خصوصيين لاجل مطاردتهِ والقبض عليهِ

ومع هذا لم يكن في مدينة جونو من يعرف شيئًا من أمر هذه الحادثة التي كانت الجرائد الاميركية تطنطن بها مالئة اعمدتها بذكر اخبارها وتفاصيلها

---

١) جاء هنا في الاصل ما نصّهُ: « وكان محمد النزي المذكور من فصحاء زمانهِ نظمًا ونثرًا مشهورًا بين الناس بالبلاغة ذكرهُ المؤرخون في تواريخهم فمنهم من قال عنهُ انّهُ توفي سنة ٧٦١ (١٣٦٠ م) ومنهم من قال سنة ٧٦٣. قال الشيخ محب الدين محمد بن القطّان احد اعيان الفقهاء بمصر في كتاب سألتهُ في تأليفهِ وانا بمصر سنة ٨٣١ هـ (١٤٢٨ م) وان يمامهُ ذيلًا على عيون التواريخ لصلاح الدين الكتبيّ المعروف عند ذكرهِ محمد النزي المذكور بأستادهِ عن مشايخ التاريخ: هو شمس الدين محمد بن عليّ بن محمد ابو عبد الله المعروف بابي الطرطور الشاعر الماهر والاديب الفاخر وكان من علماء البيان وائمّة التبيان مصريّ المولد والمحتد غزي المنشأ اقام بمدهُ مدّة طويلة. وكان كثيرًا ما يتردّد الى السواحل والثغور ثمّ بعد ذلك ورد الى دمشق وسكنها (٩٤) وازاح بآدابها غيمًا وكنّها. واحال بباقي ذكرهِ على كتاب آخر من تأليفهِ سمّاهُ نوادر البوادر ثمّ في ايام زين الدين المذكور نشأ شاعر آخر يسمّى احمد الشامي ولكن لم يصل الى منزلة النزّي ولا داناها. وطالت مدّة احمد الشامي الى بعد تيمورلنك. اختصرت ذكر شعرهِ وشعر غيرهِ خوف الاطالة والملل